ماضي سورية ومستقبلها

ارض حضارة ضائعة

اطلعنا في «المجلة الجغرافية» التي تصدرها جمعية نيويورك الجغرافية الاميركية على مقالة بقلم المستر هوارد كروسبي بطل بحث فيها بحثاً مستفيضاً في صحراء سورية او ما تسمّى في العربية بادية الشام وهي البلاد الواقعة بين حدود العمران الحالي في شرق سورية وبين نهر الفرات. وتناول بحثهُ في الاكثر حضارتها القديمة وكيف نشأت تلك الحضارة وترعرعت ثم ضاعت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً. وبحثهُ يؤيد ما طالما جهرنا بهِ على صفحات المقتطف من ان بلاد الشام كلها كانت ذات عمران زاهر زاهر تعجُّ بالخلائق وتسع ما لا يقلُّ عن عشرين مليوناً من النفوس. قال الكاتب:

قلما نجد بين البلدان التي كانت فيها غير من الزمان آهلة بالسكان عالية الكعب في العمران وهي الآن صحراء لاديار فيها ولا ديّار — بلاداً اشدّ صلة باوائل حضارتنا من بادية الشام وشمال شبه جزيرة العرب. ولم يعرف حق المعرفة عظم سعة تلك الحضارة المفقودة وكبر شأنها الاّ في الزمان الاخير كذلك لم يحاول الباحثون الاّ حديثاً كشف النقاب عن مجاهل تلك البلاد ليعلموا كم كان منها آهلاً وكم كان يصلح للسكن

ولقد كانت نتائج ما اكتشف هناك في العشرين سنة الماضية باعثة على اشدّ العجب. فقد وجد ان جميع البقعة الواسعة المسماة بادية الشام ومساحتها اكثر من عشرين الف ميل مربع كانت مزدحمة بالسكان اكثر من كلّ بقعة تساويها مساحة في انكلترا او الولايات المتحدة الآن ما عدا ضواحي المدن الحديثة الكبرى. ووجد ايضاً ان صحراء مترامية الاطراف واقعة شرقي فلسطين وممتدة شرقاً وغرباً الى ارض العربية كانت كذلك مزدحمة بالسكان ازدحام بادية الشام. ولا يعلم قدم هذه الحضارة حتى الآن لان رجال الاكتشاف ما فتئوا يكتشفون في البعد الاماكن التي بلغوها آثار الرقي والعمران

وربّ سائل يسأل متى كانت آخرة خصب تلك البلاد وآخرة مدنيتها الزاهرة. وكم دام عمرانها. وما هو سبب زواله

ليس من ينكر ان بعض هذه المسائل يتعذر الجواب عنهُ . وبعضها لا يكون الجواب عنهُ شافياً . ولست اقصد من هذا المقال محاولة الجواب عن تلك المسائل وانما اقصد وصف تلك البلاد كما هي اليوم والاستدلال بالحاضر على الماضي . وسيرى القارىء ان هذا الوصف يسهّل السبيل الى الجواب عن بعض تلك المسائل على قدر الامكان . اما البعض الآخر فيترك الجواب عنهُ لمخيلتهِ

الماضي

تدلُّ الآثار والنقوش والكتابات التي وجدت في تلك البقاع انها لم تكن آهلة بالسكان بعد اوائل القرن السابع للمسيح . ويخيّل الينا ان سنة ٦١٠ كانت تاريخ آخر مدنية الجزء الاكبر منها . وهذا التاريخ يوافق تاريخ آخر الفتح الفارسي الكبير سنة ٦١٠ — ٦١٢ واوائل الفتح الاسلامي الذي بدأ بعدهُ بنحو ٢٠ سنة

ويستدلُّ من اقدم الكتابات التي وجدت في البلاد ان العمران بلغ فيها شأواً رفيعاً في اوائل التاريخ المسيحي . كذلك تدل الآثار والتاريخ دلالة غير قاطعة ان ذلك العمران بدأ هناك قبل التاريخ المسيحي بنحو مئتي سنة او ثلاث مئة سنة على القليل . ولكن هناك آثاراً اخرى يؤخذ منها ان مدنية تلك البقعة اقدم عهداً ولو لم نعرف الاَّ القليل عن تلك المدنية القديمة . وتاريخ البلاد كما يؤخذ من التوراة وكتابات المصريين والاشوريين القدماء تدلُّ دلالة صريحة على انهُ كان في تلك البلاد حضارة راقية في اوائل مدنية الانسان

وقد كان سكانها من اصل سامي صرف او يكاد يكون صرفاً حتى ايام فتوح الاسكندر وخلفائهِ في القرن الرابع قبل المسيح حينما استعمرها الاوربيون فامتزج دمهم بدم سكانها الساميين . وفي العهد الذي تمثلهُ الآثار المشاهدة الى الآن في البلاد كان يحكم الجزء الشمالي منها الملوك اليونانيون خلفاء سلوقس احد قواد الاسكندر . وكانت انطاكية عاصمتهم من القرن الرابع الى الاول قبل المسيح . وكان الجزء الجنوبي في اكثر المدة المذكورة مقسوماً الى ممالك شرقية الاصل مستقل بعضها عن بعض استقلالاً تامًّا او جزئيًّا وهذه الممالك هي مملكة المكابيين اليهودية ومملكة الادوميين ومملكة النبط العربية وهي في اقصى الجنوب . وبين اواسط القرن الاول قبل المسيح واوائل القرن الثاني للمسيح انتقلت البلاد انتقالاً بطيئاً الى ايدي الرومان واندمجت في امبراطوريتهم باسم ولايات سورية

والعربية وفلسطين وغير ذلك من الاسماء المعروفة في التاريخ . ثم عند صيرورة المسيحية ديناً رسمياً للحكومة الرومانية في القرن الرابع المسيحي انتقلت البلاد كلها الى الامبراطورية الشرقية وبقيت حصناً حصيناً للحضارة المسيحية حتى تقطعت في اوائل القرن السابع واصبح اهلها يتكلمون لهجتين من اللغة الآرامية اي اللهجة السريانية في الشمال واللهجة النبطية في الجنوب. ولكن كانت اليونانية قد ادخلت الى البلاد ايضاً بعد الاسكندر المكدوني ثم صارت مع الزمان اكثر اللغات انتشاراً في البلاد كلها كتابة في عهد رومية والقسطنطينية والمرجح انها كانت اللغة الاكثر تداولاً في الكلام وبعبارة اخرى اللغة العامة التي يتكلمها اهل البلاد كلها دون غيرها من اللغات الاخرى

شمال سورية

ان من يسبح في ساحل سورية الشمالي ويهبط وادي العاصي الخصيب يرى في ذهابه شرقاً سلسلة غير منتظمة من الآكام الكلسية ممتدة الى الشمال الشرقي حتى منتصف الطريق بين نهري العاصي والفرات . ومتوسط علو هذه الآكام ١٥٠٠ قدم ومنها ما علوه ٣٠٠٠ قدم الى ٣٥٠٠ فوق سطح البحر . وهي آكام رمداء جرداء لا يرى فيها اثر للخضرة . واذا صعد السائح اليها رأى في كل منعطف منها اثر يد الانسان من طرق مرصوفة وجدران تفصل الحقول بعضها عن بعض وارصفة هائلة الكبر . ثم يشاهد خرائب مدن صغيرة مهجورة فيها ابنية كبيرة وصغيرة مبنية من حجارة كلسية بديعة النحت. واذا صعد الى مرتفع هناك رأى حواليه خرائب مثل هذه الخرائب ممتدة في كل جهة. واذا كان بعيداً عنها لم يكد يصدق انها خرائب مهجورة . وبعض هذه المباني لا يزال قائماً ولكن سقوفه منزوعة عنه على مر الزمن

وقد يسير المرء اميالاً كثيرة في تلك البقعة ولا يرى فيها انساناً ولا خضرة ما سوى بعض شجر البطم هنا وهناك . ولا ارضاً زراعية تصلح للزرع الا في اماكن بين الصخور حيث لم تستطع السيول جرف التراب ايام الامطار . وحول كل خربة بقايا معاصر لعصر الزيت وصنع النبيذ. ولم يكتشف في البلاد كلها سوى واحة واحدة في اقصى الشمال حيث بقايا مدينة قديمة . واسم الواحة الشيخ سليمان وهي لا ساكن فيها مع خصب ارضها وكثرة اشجارها الغبياء من زيتون وسنديان

ويطم . وفي وسطها عين ماء هي سبب خصبها وبقائها خضراء ناضرة تلك القرون الطوال

اما البناء في هذه الخرائب فيمثل كل طراز معروف عند الامم العريقة في الحضارة . من ذلك ابنية تدلُّ الدلائل على انها قديمة جدًّا وان لم يكن عليها كتابة وهي على شكل كثير الاضلاع ولها افاريز غليظة حول سطوحها وابوابها

ومنها ابنية بنيت في القرن الاول والثاني للمسيح بينها هيا كل بديعة البناء ومعظمها خرائب لان الناس جعلوا يسطون عليها لاخذ حجارة البناء منها . وفي جميع اجزاء سورية بيوت جميلة بنيت في القرنين المذكورين وكنائس كبيرة وصغيرة وحمامات ومخازن واسواق واضرحة على اشكال شتى لا عداد لها

اما كنائس القرن الرابع فابنية خالية من الزخرف . واما كنائس القرنين الخامس والسادس فاكثر زخرفاً من جميع الابنية التي تمثل العهد المسيحي قبل العهد القوطي في اوربا

وبين الابنية معاصر للزيت وخانات وفنادق كبيرة للمسافرين والحجاج

واذا اجتاز السائح هذه التلال شرقاً انحدر الى وادٍ طويل خصيب يمتد نحو الفرات وقد طمست آثار ما كان فيه من المباني لطول تداول الناس حجارتها في العصور الخالية . ويلي هذا الوادي شرقاً صحراء ثانية لا ينبت فيها شيء الآن وفيها بعض الخرائب مثل جدران قائمة او ابراج او قناطر او اعمدة . والباحث فيها عن كثب يجد انها كانت اكثر ازدحاماً بالسكان في غابر الزمان من البلاد الجبلية التي مرَّ الكلام عليها . ففي كل مكان خرائب مدن كبيرة وصغيرة استعمل في بنائها كثير من الطوب المجفف بالشمس وبعض الحجارة . وهذه الحجارة من القوقا الاسود المعروف باسم « باسلت »

وهذه البقعة ما عدا اطرافها المجاورة للوادي الخصيب غرباً خالية من السكان. على ان السائح يجد الى الجنوب منها في جوار حماه قرى اكثر بيوتها مقببة ومبنية من الطوب على مثال البيوت في وادي الفرات . ومما يهمُّ ذكرهُ هنا ان هذا الطراز من البيوت الخاصّ ببلاد ما بين النهرين والقديم العهد من ايام نبوخذ نصّر موجود ايضاً في اواسط سورية على حين ان جميع المدن والقرى في شمال سورية ذات سطوح مسطحة ومثلها القرى الحديثة العهد في الجنوب

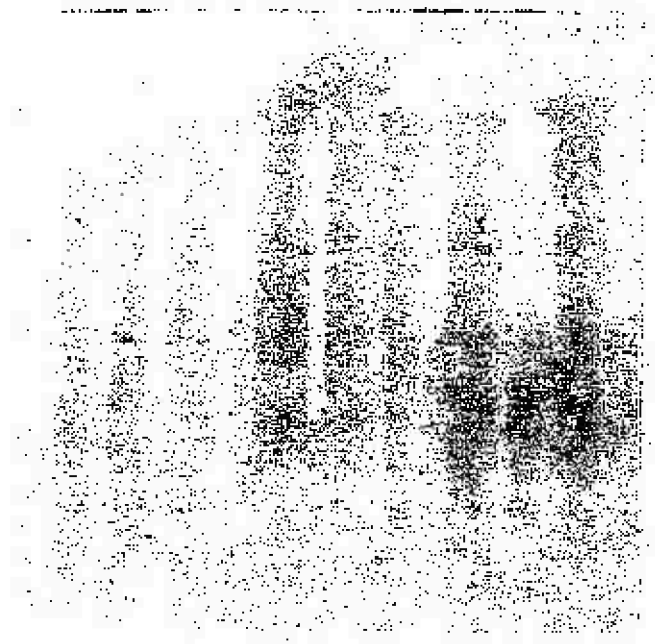

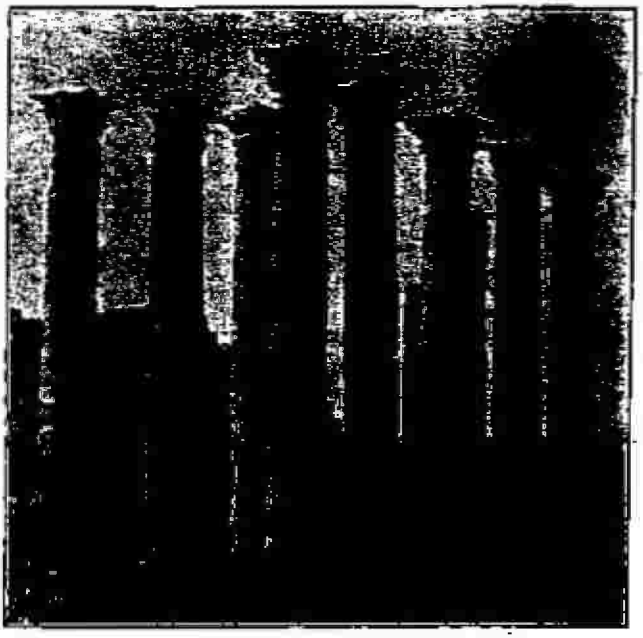

خرائب مدينة جرش في بادية الشام

خرائب مدينة قنوات في بادية الشام

مقتطف اغسطس ١٩٢٠

امام الصفحة ١٢٧

والى الشرق من هذه الصحراء خرائب مدن قديمة بنيت منازلها العادية من طوب مجفف بالشمس وهيا كلها وابنيتها الكبرى من حجارة كلسية او جص

جنوب سورية

حوران واللجا

لا بدّ للسائح الذي يريد ارتياد مجاهل البقعة الواقعة في جنوب سورية من اجتياز فلسطين . فاذا عبر الاردن وصعد الى تلال عمون او جلعاد اشرف على البلاد التي عرفت قدماً ببلاد العربية . وهي بلاد سهلية كثيرة القرى الخصبة في الشمال . وبعضها من الشرق تلال جبل حوران البركانية . والى شمال هذه التلال بقعة مكونة من الحمم البركانية وهي بلاد اللجا . والى الجنوب بقعة خصيبة تنتهي الى صحراء جديبة . اما آكام عمون او جلعاد المذكورة آنفاً فآكام كلسية . واما الحجارة التي في السهل والتي يتألف منها جبل حوران وتمتدّ جنوباً الى قلب الصحراء فكلها من القوقا . والى الشمال الشرقي من عمان نهاية سيل الحمم التي قذفها جبل حوران ايام كان بركاناً ثائراً

وبين التلال شرقي الاردن وجبل حوران سهل اسمهُ سهل البقره او سهل حوران وهو كثير السكان ولكنهُ لم يكتشف حق الاكتشاف حتى الآن . وكل قرية فيهِ بنيت على اطلال مدينة قديمة . وقد نقب المنقبون في بلاد حوران الجبلية واكتشفوا اشياء تذكر منذ ستين سنة من نبطية ورومانية ومسيحية ولكن الدروز سكنوا منذ قرن على هذه الخرائب فما وق ذلك اكتشاف ما فيها الا شيئاً فشيئاً

ومن اغرب الخرائب في الارض القاحلة جنوبي جبل حوران والى الجنوب الشرقي منهُ خرائب القرية المعروفة باسم « ام الجمال » وهي كلها من القوقا القائم في ارض بيضاء . وجميع الآثار تدلّ على ان حضارة هذا الجزء الجنوبي تخالف حضارة الجزء الشمالي نوعاً ولكنها ليست دونها منزلة

وسيأتي الكلام في الجزء الثاني من هذه المقالة على آثار الطرق والجسور . وكيفية بناء الطرق الرومانية . واهالي البلاد القدماء وحضارتهم واحوالهم المعاشية وسبب افتراض مدنيتهم . وسكان البلاد الحاليين من دروز ومسيحيين ومقابلة الماضي بالحاضر